مجلة مجمع اللغة العربية

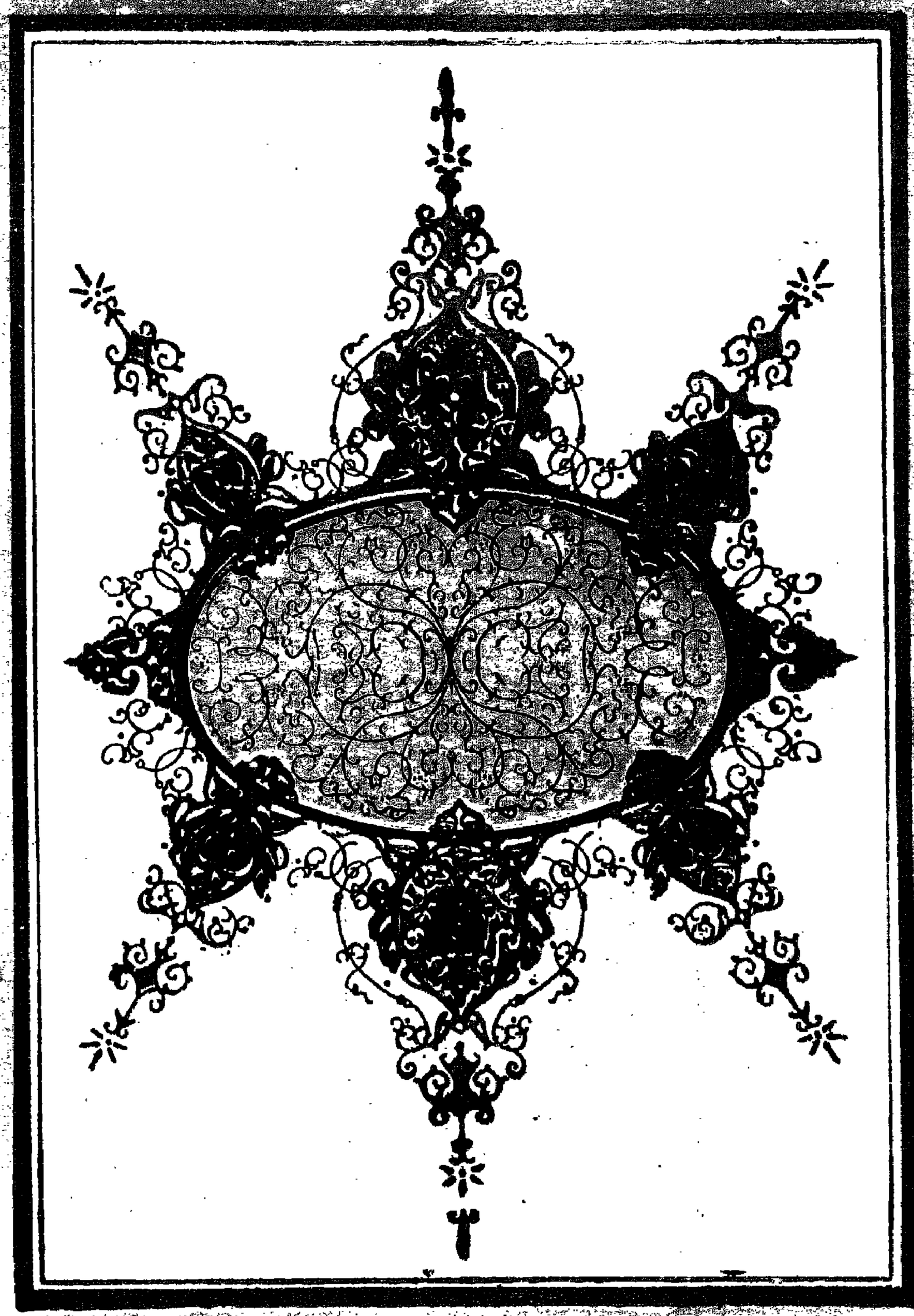

الجزء الخامس والثلاثون
ربيع الآخر ١٣٩٥ هـ
مايو ١٩٧٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدير

صيغة الجمع: و"فِعلان" مثل غِلمان

للدكتور ابراهيم أنيس

جموع

التكسير العربية التى جاءت على هاتين الصورتين قد سببت بعض الحيرة لعلماء العربية فقد حاولوا فى كتبهم أن يضعوا قاعدة لها ، فجاءت قاعدتهم فى نهاية الجهد عرجاء لا تفسر الحكمة فى أن عدداً من صور المفرد التى لا يمت بعضها إلى بعض من حيث البنية بأى صلة ، قد جمعت على « فعلان » بكسر الأول ، وأن عدداً آخر من صور المفرد قد جمعت على « فعلان » بضم الأول !!

فأى صلة بين بنية المفردات « غراب . صرد . حوت . تاج » حتى يمكن أن يقال إنها تجمع قياسياً أو باطراد على « فعلان » بكسر الأول ؟ وأى صلة بين بنية المفردات « بطن . ذكر . قضيب » حتى يمكن أن يقال إنها تجمع قياسيا على « فعلان » بضم الأول ؟ !

ومن عجيب أمر هؤلاء العلماء أنهم إذا وجدوا فى اللغة أمثال :

[« غزلان » جمعا لغزال : وخرفان » جمعا لخروف و « نسوان » جمعا لنسوة ، « ركبان » جمعا لراكب ، « سودان » جمعا لأسود] قالوا : إن كل ذلك من المسموعات القليلة أو النادرة ! !

هم يتصورون إذن أن الجمع « فعلان » بصورتيه ، مطرد فى سبع صيغ ومسموع فى خمس صيغ من صيغ المفرد !! فأى جمع هذا ؟! وأى لغة مستقيمة يمكن أن تتضمن مثل هذا النظام الذى زعموه ؟ !

فإذا حاولنا أن نضع فرضا معقولا فى تأصيل هذا الجمع ، قلنا : إن أمثلته العربية ، لا تعدو أن تكون جموعا على طريقة اللغة الحبشية فى جمع المفرد المذكر بإلحاق الألف والنون !! ولذلك نفترض أن الجمع « فعلان » بصورتيه ، صيغة غريبة على العربية الشمالية المألوفة لنا . وقد جاءت هذه الصيغة على حسب الجمع فى اللغة الحبشية ، ربما عن طريق العربية القديمة فى جنوب شبه الجزيرة ، وذلك بأن ألحقت الألف والنون بالجموع العربية التى على الصور [فُعْل مثل خرس ، فُعُول مثل بطون ، فُعُل مثل غدر ، فِعْلة مثل إخوة] فى الكثرة الغالبة من الأمثلة المروية فى اللغة .

والجمع بإلحاق الألف والنون كثير الشيوع جدا فى اللغة الحبشية ، وربما كان أيضا فى العربية الجنوبية التى كانت سائدة فى اليمن القديمة .

لماذا إذن لا نفترض أن الكثرة الغالبة من الأمثلة التى رويت فى معاجمنا العربية على « فعلان » بكسر الأول أو ضمه ، لا تعدو أن تكون فى الأصل جموعا عربية مألوفة ثم جمعت ثانية على طريقة اللغة الحبشية بأن ألحقت بها الألف والنون ، فهى مما يمكن أن يطلق عليه مصطلح « جمع الجمع » ! !

ولا بد هنا من وقفة قصيرة لنقول شيئا عن ظاهرة جمع الجمع ، التى لم يجد القدماء من علماء العربية ما يعللونها به سوى أن يقولوا :

[قد تدعو[1] الحاجة إلى جمع الجمع كما تدعو إلى تثنيته ، فكما يقال فى جماعتين من

---

(١) أشمونى جـ ٤ ص ١١٢

الجمال « جمالان » كذلك يقال فى جماعات « جمالات » ، وإذا قصد تكسير المكسّر نظر إلى ما يشاكله من الآحاد فيكسر بمثل تكسيره ، كقولهم فى « أعبد » أعابد و « أسلحة » أسالح و « أقوال » أقاويل ..... وقالوا فى « مصران ، مصارين ، وغربان غرابين ..... وما جاء من الجموع على زنة مفاعل ، مفاعيل ، لم يجز تكسيره لأنه لا نظير له فى الآحاد فيحمل عليه ، ولكنه قد يجمع بالواو والنون كقولهم فى « نواكس » نواكسون وفى « أيامن » أيامنون ، أو بالألف والتاء كقولهم فى « حدائد » حدائدات وفى « صواحب » صواحبات . ومنه الحديث : إنكن أنتن صواحبات يوسف]

ولا يكاد هؤلاء العلماء يحاولون تعليل ظاهرة جمع الجمع أو تسويغها .

غير أنا نرى فى إشارة منسوبة فى لسان العرب للأزهرى يعقب بها على ما رُوى عن سيبويه من أنه كان يعتبر كلمة « مصارين » جمع الجمع . جاء فى اللسان : [المصارين جمع المصران جمعته العرب كذلك على توهم النون أنها أصلية] !!

أى أن « مصران » فى رأيه ، اعتبر مفردا عن طريق التوهم ، أو ما نسميه نحن بالقياس الخاطىء ، ثم جمع على مصارين ، وليست مصارين إذن فى رأيه من جمع الجمع !!

وظاهرة جمع الجمع قد عرفها اللغويون المحدثون فى لغات متعددة قديمة وحديثة ، ليست مقصورة على اللغة العربية ، لكى نسمح لبعض القدماء من علماء العربية ، أن يقول : « إنها من سنن العرب » ! !

ويفسر اللغويون المحدثون ظاهرة جمع الجمع على أحد أساسين :

أولها : أن بعض الكلمات التى تتضمن دلالة الجمعية قد يكثر شيوعها جدا ، فتبلى فيها تلك الدلالة أو تضعف تدريجيا ، حتى تصبح فى وقت ما وقد اقتصرت دلالتها فى أذهان معظم الناس على الإفراد ، ويقال حينئذ إنها فقدت فكرة الجمعية ، وأصبحت بحاجة إلى أن تجمع مرة ثانية ، ولتوضيح ذلك يكفى أن نتذكر هذه الكلمات (زناد . برام . كراس . مصران) التى تجرى على ألسنتنا الآن ، ونحسبها من المفردات ، ولكنها فى حقيقة أمرها جموع ، ومفرداتها الأصلية هى على الترتيب (زند . برمة . كراسة . مصير) !

وقد أدى فقدان فكرة الجمعية إلى تكرار الجمع فى الكلمة الإنجليزية Children التى هى الآن فى أذهان معظم الإنجليز مجرد جمع الكلمة Child وفى الحقيقة أن المفرد Child قد جمع قديما على Childer حين كانت علامة الجمع « Er » ، ثم تنوسيت جمعيتها فجمعت بعد ذلك بطريقة أخرى أو علامة أخرى للجمع هى « En » وهى العلامة التى لا نزال نراها فى مثل الكلمة الإنجليزية Oxen فأصبحت كلمتنا فى نهاية المطاف Children !!

ثانيهما : أن فكرة الجمعية أو دلالة الجمعية فى كلمة ما قد لا تكفى ، أو لا تقنع المتكلم ، فيعمد إلى تقويتها رغبة فى المبالغة ، أو التهويل ، بأن يجمعها مرة ثانية ، ويبدو أن هذه هى الحال التى سيطرت على ذهن علماء العربية بين القدماء حين تحدثوا عن جمع الكلمة مرة ثانية ، وسموا ذلك جمع الجمع . فهم يتصورون فى جمع الجمع أنه يفيد عددا من الآحاد أو الأفراد أكثر مما يفيد الجمع الأول الأصلى .

ومما شجع على جمع الجمع فى العربية ، ولا سيما فيما سموه بتكسير المكسّر ، أن فى العربية بعض الصيغ التى يكثر ورودها مع بعض المفردات ومع بعض جموع التكسير فى وقت واحد ، مثل « فُعُول » الكثيرة الشيوع فى مصدر الفعل الثلاثى اللازم المفتوح العين أمثال : نزول . خروج . دخول . وهى أيضا كثيرة جدا فى جمع الاسم الثلاثى أمثال : قبور . قرون . قصور .

وكذلك الشأن مع الصورة الأصيلة للاسم الثلاثى حين يكون مضموم الفاء ساكن العين مثل : جرخ . قطر . حلم . فهذه الصيغة كثيرة الشيوع أيضا ومطردة فى جمع الألوان وذوى العاهات ، أمثال : حمر . زرق . عرج . صم . بكم .

وربما كانت كذلك صورة الاسم الثلاثى المضمومة الفاء والعين ، والكثيرة الشيوع فى القرآن الكريم ، إذ ورد فيه من هذه الصورة ١٧ مثلا هى :

(أفق . أكل . حلم . ثلث . دبر . ربع . زبر . سدس . شغل . عنق . هزؤ أذن . نسك . ظفر . عمر . قدس . نصب) .

وقد جاءت هذه الصورة « فُعُل » مطردة بين جموع التكسير فى أمثال : قُضُب (جمع

قضيب) ، ُعمُد (جمع عمود) ، ُحمُر (جمع حمار) ُقذُل (جمع قذال) صُبُر (جمع صبور) ... الخ

وأخيراً صيغة « فِعْلة » مثل فتية ، صبية ، وهى الصيغة التى تشكك بعض القدماء فى أنها صيغة للجمع ، ووصفوها بأنها لم تطرد فى شىء وإنما سمعت فى ألفاظ ، ولذلك قالوا عنها إنها اسم جمع ، وليست من صيغ الجمع !! هى إذن أكثر قبولا لأن تجمع ثانية من غيرها من صيغ جموع التكسير الأخرى أمثال : ُفعُول ، ُفعْل ، ُفعُل ، التى أشرنا إليها آنفا .

وهكذا ترى أن الصيغ (ُفعُول ، ُفعْل ، ُفعُل ، فِعْلة) حين عبرت عن دلالة الجمعية قد شجعت على أن يعاد جمعها مرة ثانية ، وأن تصبح مما يسمى جمع الجمع .

ويبدو أن هذا هو الذى حدث فى صيغة (فعلان) بصورتيها ، فأمثلتها العربية ، لا تعدو أن تكون فى الأصل جموع تكسير على الصور الآنفة الذكر ، ثم ألحقت بها الألف والنون لتقوية دلالة الجمعية فيها أو للمبالغة ، وكان ذلك اتباعا لطريقة الجمع الشائعة جداً فى اللغة الحبشية — ونفترض لذلك أن العربية قد اقترضت علامة الجمع فى اللغة الحبشية ، وربما كان هذا الاقتراض عن طرق العربية القديمة فى جنوب شبه الجزيرة فألحقت الألف والنون ببعض الأمثلة المجموعة أصلا على الأوزان (ُفعُول ، ُفعْل ، ُفعُل ، فِعْلة) .

وقد أحصينا فى استقراء سريع من معاجمنا القديمة أكثر من أربعين مثلا جاءت على (فعلان) بصورتيها ، ولم نجد بينها ما يتطلب تفسيرا خاصا سوى ثمانية أمثلة هى : ذؤبان . خرغان . حملان . سيدان . جرذان . صردان . رهبان . صنوان .

وقد ورد فى القرآن الكريم نحو عشرة أمثلة ليس بينها ما يتطلب تفسيرا خاصا سوى مثلين هما : رهبان ، صنوان . وأما من حيث (رهبان) فقد اعتبرها بعض اللغويين مفردا — جاء فى اللسان ما نصه : (وقد يكون الرهبان واحدا وجمعا ، فمن جعله واحدا جعله على بناء فعلان ، أنشد ابن الأعرابى :

لو كلّمتْ رهبانَ دير فى القلَل لا نحدر الرهبان يسعى فنزلْ

وأما من حيث « صنوان » فيمكن أن يقال إنها جاءت قياسا على « إخوان » لأن المفرد (صنو) يتحد فى الدلالة مع المفرد (أخ) ، أى أن الجمع (صنوان) قد نشأ دون المرور بمرحلة (فِعْلة) كما فى « إخوة » لأن الصنو » يؤنث على صنوة .

وأما سائر الأمثلة الأخرى التى تتطلب تفسيرا خاصا فنؤثر هنا أن نمر بها مرورا ودون أن نحاول تفسيرها بأكثر من أنها ربما تكون قد جمعت على هذه الصورة قياسا على أمثلة أخرى تشبهها ، وإن كنا نجهل المقيس عليه فى معظم تلك الحالات ؛ لجهلنا بتاريخ نشأة الكلمات فى أغلب الأحيان . فمثلا يمكن أن يقال : إن الجمع (حُمْلان) قد جاء قياسا على الجمع (ذُكْران)

ويعنينا هنا ، قبل تفسير القلة من الأمثلة المروية فى اللغة ، أن نصف القاعدة التى خضعت لها الكثرة من الأمثلة ، وهى تجاوز الثلاثين مثلا . ونبدأ هذا الوصف بأن نقرر أن إلحاق الألف والنون بالصيغة (فِعْلة) يأتى لنا بالجمع (فِعْلان) المكسور الأول، وإلحاقهما بالصيغ (فَعُول ، فَعْل ، فُعْل) يأتى لنا بالجمع (فُعلان) المضموم الأول . فحركة « الفاء » فى الجمع الأصلى هى التى تحدد حركة « الفاء » فى الجمع (فعلان) ، كما نقرر أيضا أن العربية فى إلحاق الألف والنون ببعض أمثلتها قد تحاشت ، فيما يبدو ، اللبس بالمثنى ولذلك مالت الى تسكين الوسط مع صيغتى (فُعول ، فُعْل)

نسوق بعد هذا الأمثلة المروية فى المعاجم القديمة ، والتى خضعت للقاعدة التى نفترضها فى تفسير الجمع المختتم بالألف والنون :

أولا : وزن (فِعْلان) بكسر الأول . وأمثلة هذا الوزن فى الكثرة الغالبة ، مما ورد منها فى اللغة ، لا تعدو أن تكون فى أصلها جموعا على صيغة (فِعْلة) ثم جمعت ثانية بأن ألحقت بها الألف والنون :

١ — شيخ ← شِيخة ← شيخان

٢ — فتى ← فِتية ← فتيان

٣ — صبى ← صبية ← صبيان

٤ — غلام ← غلية ← غلمان.

٥ — غزال ← غزلة ← غزلان

٦ — شجاع ← شجعة ← شجعان (المضموم الأول أكثر شهرة)

٧ — أخ ← إخوة ← إخوان

٨ — جار ← جيرة ← جيران

٩ — نار ← نيرة ← نيران

١٠ — قاع ← قيعة ← قيعان

١١ — ثور ← ثيرة (قال المبرد جمعوه على فِعْلة ثم حركوا الياء) ← ثيران .

ومن المؤكد أن أمثال (باب بيبان ، تاج تيجان ، كوز كيزان ، حوت حيتان ، نسوة نسوان) قد جاءت قياسا على بعض الأمثلة الآنفة الذكر ، أو أنها فقدت إحدى المراحل الثلاث (مفرد ← فِعْلة ، فعلان)

ثانيا : وزن (فعلان) بضم الأول ، وأمثلة هذا الوزن فى الكثرة الغالبة بما ورد منها فى اللغة ، لا تعدو أن تكون فى أصلها جموعا على إحدى الصيغ (فُعُل ، فُعُل ، فُعُول) ، ثم جمعت ثانية بأن ألحقت بها الألف والنون :

ا — فُعْل + ان = فُعْلان . واشتهر ذلك فيما يعبر عن الألوان والعاهات ،

١ — أسود ← سُود ← سُودان

٢ — أبيض ← بيض ← بيضان (كسر الأول طارئ بسبب الياء)

٣ — أعمى ← عمى ← عميان

٤ — أبكم ← بكم ← بكمان

٦ — أصم ← صم ← صمان

٦ — أخرس ← خرس ← خرسان

٧ — أعرج ← عرج ← عرجان

٨ — ولد ← وُلْد ← ولدان

(ب) فُعُل + ان = فُعْلان (بعد تسكين الوسط لئلا يلتبس بالمثنى)

١ — غدير ← غدر ← غدران

٢ ــ جدار ← جدر ← جدران

٣ ــ قضيب ← قضب ← قضبان

٤ ــ رغيف ← رغف ← رغفان

٥ ــ عبد ← عُبُد ← عبدان

٦ ــ صليب ← صُلُب ← صلبان

(ح) مفعول + ان = فعلان (بعد تسكين الوسط لئلا يلتبس بالمثنى)

١ ــ بطن ← بطون ← بطنان

٢ ــ ظهر ← ظهور ← ظهران

٣ ــ راكب (أو ركب) ← ركوب ← ركبان .

٤ ــ ذكر ← ذكور ← ذكران

٥ ــ ضيف ← ضيوف ← ضيفان (كسر الأول طارئ بسبب الياء)

ومع أن المستشرقين يشيرون فى كتبهم إلى أن إلحاق الألف والنون فى اللغة الحبشية علامة للجمع المذكر الصحيح ، ويقررون أنه قد وجدت له بعض الآثار فى اللغتين الأكادية والسريانية . وبرغم ذلك إذا عرضوا لجمع التكسير فى اللغة العربية يعتبرون إلحاق الألف والنون من علامات جمع التكسير فيها (١) ؟!

ومن كل ما تقدم نرى أن الصيغة (فعلان) بصورتيها مما يسمى بجمع الجمع . وأنها فى الأصل جمع على إحدى الصيغ (فِعْلة ، فُعْل ، فُعُل ، فُعُول) ، ثم جمعت ثانية على طريقة اللغة الحبشية بأن ألحقت بها الألف والنون .

وفى الحق أن بعض علمائنا القدماء قد اعتبروا بعض أمثله (فعلان) مما يسمى بجمع الجمع . جاء فى اللسان : (والجدار : الحائط والجمع جدر ، وجدران جمع الجمع) .

---

(1) S. Moscati : an introduction to the Comparative grammar of the semitic Languages . p . 88 .

وليس اقتراض علامة الجمع من لغة أخرى أمراً فريدا ، أو لا نظير له بين اللغات ، فقد اقترضت الفارسية علامة جمع المؤنث السالم من العربية (ا ت) وجمعت عليها بعض الكلمات الفارسية الأصل مثل (باغ) بمعنى حديقة جمعت على (باغات) بمعنى حدائق . وكثيرا ما اقترضت الإنجليزية علامة الجمع اللاتينية فقالت مثلا فى جمع (formulae ، formula). وإذا كان قد تم اقتراض علامة الجمع بين لغتين من فصيلتين مختلفتين كالعربية والفارسية فلا غرابة أن يتم ذلك بين لغتين ساميتين هما العربية والحبشية .

وبالله التوفيق

المشرف على المجلة

ابراهيم أنيس